3- العُزلة

نيرة الحديدي

في غُرفة بَهتت ألوانُها، وفي أبعد أركانِها، يجلس مُنزويا غير مُكْتَرِثْ بِبرودة المكان حوله، رُبما كانت الوحدة التي يشعر بها أشد برودة من اليابسة التي لم يُفَارقها لأيام، مُعانقًا ساقيه.. يُفكر فيما حَدث، وكيف بهذه السرعة؟!.. كيف فقدهم.. ولمَ؟!.. ألهذا الحد هو لا يُطاق؟، كان يُحَاول قدر إمكانه أن يوفر لهم كل ما يريدونه، كان يحاول أن يستمع لهم كلما ضاقت صدورهم، ولم يسمعه أحد، ومن الممكن جدًا أن يفارق الحياة دون علمهم.. ، فإن لم يَودِهم لن يَودِوه.

يفكر ماذا لو أن الخطأ منه؟! ماذا لو كان اختار من يهتم لأمره ويحبه، لمَ اختارهم هم بالأخص!!، أحبهم بصدق وهذا عماه عن عيوبهم التي تحملها على مضض، وكأنه يخشى أن يبقى بمفرده وسط هذا الحشد من البشر، ولكنه كره قلة اهتمامهم فهو يستحق الاهتمام.

يخشى أن يكون قد أخطأ في حق أحدهم فأقاموا الحد جميعهم على صداقته، ولكنه أيضًا لم يعصم نفسه من هذا الاحتمال؛ فطلب منهم مرارًا أن يتناقشوا فقط ليعرف ماهية جريمته التي أثارت غضبهم تجاهه، وأبادت حبهم له، ولكن دون جدوى فلم يستجب أحد لندائه، وتركوه مصارعًا أفكاره، يحاول بكامل طاقته أن يزيلها عن عقله، ولكن لا يفيد الغارق حجب الأمواج دون أن يخرج من الماء.

تذكر لقاءهم الأول، وابتسامتهم الودودة، ابتسم بأسى وهو يتذكر تلك الصورة التي التقطوها يومها ذكرى أولى لصداقتهم، طُبعت تلك الصورة على لوح خشبي، وظلت معه، اتجه صوب المكان الذي يخفى به تلك

الذكرى، أخرجها من صندوق سنواته الماضية وظل يتأملها في صمت، حتى أن عينيه عجزتا عن البكاء.

***

تعالوا نتصور بقى بمناسبة أول يوم لينا نقابل مع بعض.

كان هذا صوت منير الذي قفز أمامهم بطريقته الطفولية المرحة ممسكًا بهاتفه، انطلقت ضحكاتهم وكأنهم يعرفون بعضهم البعض منذ سنوات.

والتُقطت تلك الصورة لتوثيق هذه الذكرى، ولكن القدر حولها إلى جلَّ أحزانه.

أخرج الصورة وأدارها، فوجد إمضاءات بأربعة خطوط مختلفة:-

منير، هند، ليلى، وأخرهم هو.. فريد.

وأُلحقت أسماؤهم بتلك العبارة "سنظل معًا إلى الأبد" والتي اشتركوا جميعًا في كتابتها..

انهمرت دموعه دافئة مقترنة بابتسامة سخرية من ذلك الوعد الذي بددته الأيام، أشعل سيجارته مُسلمًا جسده لسريره ومُسلمًا آذانه ووجدانه إلى الموسيقى:-

"أنت الذي حلفتني وحلفت لي.. وحلفت أنك لا تخون فخُنتني"

أغمض عينيه علَّ النوم يجد طريقًا إلى جفنيه، ولكن قبل أي محاولة جادة من النعاس، أنطلق صوت طرقات من باب منزله، عقد حاجبيه ذهولًا فهو يعلم أن لا أحدا يهتم بأمره، ولا بأمر زيارته، فكر في تجاهل تلك الطرقات ولكنه قرر تلبية النداء فقط إرضاءً لفضوله، الذي أوشك على النفاد هو الآخر.

اتجه صوب باب منزله وأمسك بالمقبض وفتح الباب، لتتسع عيناه عن أخرهما ذهولًا، شعر بأن قلبه على حافة الانفجار، شعر بتلك الغصة بحلقه والتي تسببت في اندفاع العَبارات مُتحجرة على حافة عينيه، فقد وجدهم أمامه!

زاغت عيناه بين ثلاثتهم وهو يحاول التماسك قدر الإمكان فهو لن يبكي مهما حدث، قطع شروده صوت منير الطفولي وهو يقول:-

- طب يا أخي قولنا اتفضلوا.. هو إحنا آه كدا كدا هنتفضل بس متخليش شكلنا وحش.

تفاجأ من أسلوبه المازح وكأن شيئًا لم يكن، وكأن قطيعة لم تحدث، أفسح لهم المجال للدخول دون أن ينطق بكلمة واحدة، فاستقر كل منهم بمكانه الذي اعتاد الجلوس فيه.

جلس بينهم كالغريب مسلطا نظراته على "هند" التي تعمدت إشاحة عينها بعيدًا حتى أنه ود لو طردها من بيته، ما يزيد دهشته أنه لم يخطئ بحقها ولو لمرة؛ بل قدم التضحيات كقرابين، وتنازل عن فُرص كثيرة فقط لتحظى هي بها، تذكر لحظات انكسارها، كان يحاوطها بذراعيه كي لا يرى أحد دموعها، أرادها قوية دائمًا، فكان له ما أراد، وأثبتت قوتها بفراقه، تمنى لو أن المشاعر كانت شيء مادي يُمكن استرداده، تمنى أن يسلب منها كل ما قدمه من حب وتفان.

ليلى:- أزيك يا فريد؟

ها هي صديقة طفولته التي لا يكفيها جملة واحدة لمصافحة شخص ما، تُقاطع نظراته إلى هند بسؤالها الذي بدا وكأنها قد جُبرت عليه وكأنه عمل قد كُلفت به ليس إلا.

اكتفى بإيماءة

رأسه وابتسامة جامدة فقط للرد عليها، فهو لم يشعر بسلامها من الأساس حتى ينطق مجيبًا عليه، يتعجب كيف للأيام أن تجعل من كانوا قرناء لسنوات شخوصًا لا يُطاق رؤيتهم، أو حتى ذكر أسمائهم، هو لا يكرهها ولكنه لن يتقبل وجودها مرة أخرى، لقد خذلته.

خيم الصمت على الأجواء قبل أن يلاحظ نظرات منير المعاتبة له، نعم منير لم يفعل شيئًا وهذه هي العقبة بينهما، فهو فعليًا لم يفعل شيئًا، لم يجاوره وقت مرضه لم يهتم بجمعهم مرة أخرى، لم يكترث لأي شيء وكأنها أمنيته فما لبث أن افترق فريد عنهم ليتنفس هو الصعداء واطمأن قلبه.

خالطه قليل من الإحراج فهو يعلم اهتمامهم المبالغ به بالمظاهر، لا يتخيل مظهره أمامهم الآن، فهو لم يقف أمام المرآة منذ عدة أيام.. ولكنه متيقن بحضور سواد الليل أسفل عينيه.. ولكن تُرى ما الذي جاء بهم إليه؟!، أتاه الرد سريعًا بحديث منير الذي قال:-

- طيب إحنا جايين ناخدك وننزل نغير جو شوية، تحب تنزل معانا ولا وراك حاجة؟!

لقد عاهد كيانه ألا يعود لهم ثانيةً، ولكنه يشعر بالحنين، يشعر بالوحدة دونهم، يشعر بالغربة، لم يعطِ للصراع فرصه بالاشتعال داخله، فأومأ موافقًا وقرر التنزه بصحبتهم.

ها هو نفس مكانهم المفضل والذي اعتادوا التجمع فيه مرارًا وكأنهم تعمدوا تكرار كل شيء، مكان جلوس كل منهم وحتى قهوته التي يحتسيها، والتي احتوته عندما نفر الجميع منه.

مضت لحظات قبل أن تبدأ ليلى الكلام:- بص يا فريد.. سواء إحنا غلطانين أو أنت اللي غلطان إحنا لازم نرجع صحاب تاني، إحنا اتفقنا مش هنبعد لأي سبب، ولو حد زعل من التاني يقوله بصراحة.

- وأنتوا حافظتوا عالاتفاق؟!

خرجت جملته منفعلة ومتمردة على كل ما حدث، نظر الثلاثة أصدقاء إلى بعضهم البعض وكأنهم الباحثون عن حُجج تنقذهم من شرر عينيه المتطاير، ولكنه لم يمهلهم الوقت للتحجج فاستكمل قائلاً:-

- عايزين ترجعوا؟!.. يبقى اتعرف عليكم من تاني.. هتعب؟!.. عارف أني هتعب عشان أنا أتأقلمت أكون لوحدي وكنت اقتنعت أكمل باقي حياتي كده، لكن للأسف الحياة متنفعش بالطريقة دي.. لو عايزينا نرجع صحاب تعالوا نعتبر أن انهرده أول يوم بينا واحكيلكم عن صحابي اللي مشيوا من غير حتى ما افهم ليه.. واحكموا أنتوا عليهم.

نظرت له هند تلك النظرات المتعجرفة، قبل أن تتحدث قائلة:-

- أنت ليه بتوهم نفسك أنك مش غلطان وأننا..

- لا مش غلطان.

قاطعها صارخًا بتلك الجملة غير أبه بوجودهم بالكافيه.. ليصمت الجميع ويستكمل هو حديثه بنبرته المنفعلة:- أنا مش غلطان.. قولولي موقف واحد قصرت فيه مع حد فيكم، قولولي حاجة واحدة تخليكوا تبعدوا.

أجابت هند:- وليه ما تقولش أن أنت اللي بعدت.

ارتفعت ضحكاته الساخرة قبل أن يقول:-

- إمتى بعدت؟!.. لما كلمتك ومارديتش أكتر من مرة؟!، ولا لما كلمت ليلى وقالتلي مش قادرة أتكلم.. ولا يمكن لما كلمت الباشا وقعد يتهرب ويقول عنده شغل.

أخذت طبقات صوته ترتفع وترتفع حتى لاحظ الجميع من حوله والتفتوا لحديثه، فخرجت الجمل من فمه كالسلاح وكأنه يفرغ طاقته المخزونة من يوم تركوه، قاطع منير حديثه قائلاً:-

ممكن تهدى شوية، اهي عصبيتك دي اللي مخلية محدش طايقك.

جحظت عينا فريد من الدهشة، لقد اعترف منير بالحقيقة، لم يعد أحد يطيقه! إذن فلمَ هم معه الآن؟!.. لمَ تذكروه؟!.. فتحدث وكأن الصوت المرتفع أصبح دربه قائلاً:-

- ولما أنا وحش كده؟!.. جايين ليه؟! عايزين مني أيه؟.. ماتخليكوا أنتوا مع بعض عايشين ومبسوطين ومتأقلمين.. سيبوني وكأني مدخلتش حياتكم من أصله!!.

التفتت هند يمينًا ويسارًا قبل أن تتحدث إليه بنبرة مشمئزة من طريقته:-

ممكن توطي صوتك.. إحنا مش لوحدنا هنا.. الناس بتتفرج علينا.

أثارت جملتها غضبه علاوة على ما هو به، فخبط بقبضته على الطاولة وهب من مقعده ناظرًا إليها صارخًا بأعلى صوت:-

أنتي إزاي بالبرود ده!! أنتي جاية ليه؟؟ أنتوا جايين تاني ليه؟! ما تردوا عليا!! أنا مش عايز حد معايا.. أنا مش لعبة تسيبوني وقت ما تحبوا وترجعوا وقت ما تحبوا، فاهمين؟؟!!.. ردوا.. راجعين دلوقتي ليه.

صرخ وكأنه لن يستطيع الكلام مرة أخرى، صرخ ليلقي كل ما في جوفه من ضيق، وكأنه يريد الخلاص من كل ما بداخله، رفع رأسه وهم بمغادرتهم، ليتفاجأ بحلقة من الأشخاص وعلى وجوههم ملامح الدهشة والشفقة، فسقطت عبارتهم مشاطرين له حزنه الدفين الذي أعلن ثورته منذ قليل.

تساءل بقرارة نفسه هل هذا الحزن يليق بشجار قد يكون معتادا بين أصدقاء؟!، فلمَ هم متأثرون لهذه الدرجة، أعاد النظر إلى أصدقائه، فكانت الفاجعة!، لم يجد أحد جالسا معه، المقاعد فارغة.

لقد كان يحدث نفسه، أو بالأحرى يحدث ذاتهم القابعة داخله، الآن فقط قد أدرك سر نظرات من حوله، بدأت رؤيته في الاضمحلال تدريجيًا، ودوى صوت طنين بأذنيه، وهنا أعلن جسده العجز عن المقاومة، ليسقط نحو الهاوية.